المحاضرة الثامنة: مصطلح الجودة

تعريف الجودة لغة: أجاد الرجل إجادة، أتى بالجيد من قول أو فعل.

وقد تحدث النقاد عن الجودة، وفهموها فهما يتفاوت في الدقة والوضوح من ناقد لآخر. وهذا الاختلاف في الفهم ناتج عن اختلاف المقاييس المعتمدة في تحديدها.

يقول قدامة بن جعفر (337هـ) تحت عنوان صناعة الشعر: "ولما كانت للشعر صناعة، وكان الغرض في كل صناعة إجراء ما يصنع ويعمل بها على غاية التجويد والكمال، إذا كان جميع ما يؤلف ويصنع على سبيل الصناعات والمهن فله طرفان: أحدهما غاية الجودة، وآخر غاية الرداءة، وحدود بينهما تسمى الوسائط، وكان كل قاصد لشيء من ذلك فإنما يقصد الطرف الأجود، فإنه كان معه من القوة في الصناعة ما يبلغه إياه، سُمي حاذقا تام الحذق، وإن قصّر عن ذلك نُزِّلَ له اسم بحسب الموضع الذي يبلغه في القرب من تلك الغاية والبعد عنها، كان الشعر أيضا إذا كان جاريا على سبيل سائر الصناعات، مقصودا فيه،وفي ما يُحاك ويُؤلف منه إلى غاية التجويد، فكان العاجز عن هذه الغاية من الشعراء إنما هو من ضعُفَتْ صناعته[1].

يضيف قدامة "وأذكر أسباب الجودة وأحوالها وأعدادها وأجناسها، ليكون ما يوجد من الشعر قد اجتمعت فيه الأوصاف المحمودة كلها، وخلا من الخلال المذمومة بأسرها، يسمى شعرا في غاية الجودة، وما يوجد بضد هذا الحال يُسمى شعرا في غاية الرداءة، وما يجتمع فيه من الحالين (حال الجودة وحال الرداءة) أسباب يُنّزل له اسم بحسب قربه من الجيّد أو من الرديء، أو وقوفه في الوسط الذي يقال لما كان فيه: صالح أو متوسط، أو لا جيّد ولا رديء، فإن سبيل الأوساط في كل ما له ذلك أن تُحد بسلب الطرفين، كما يقال مثلا في الفاتر– الذي هو وسط بين الحار والبارد– إنه لا حار ولا بارد، والمزّ– الذي هو وسط بين الحلو والحامض– إنه لا حلو ولا حامض"[2].

ومن مقاييس الجودة في القول أن تكون الكلمة متآلفة الحروف سهلة الجري على اللسان، عذبة الوقع على السمع.

معايير الجودة في الشعر حسب رأي قدامة بن جعفر

---

[1]– قدامة بن جعفر، فقد الشعر، ص18..

[2]– المصدر نفسه، ص18–19.

هذه المعايير عبارةٌ عن شرائطَ تشمل كلَّ ما هو لفظي؛ من كلمة وتركيب، ووزنٍ وقافية، وما هو معنوي؛ من شكل القصيدة والتحامِ الأجزاء، والتزامِ النُّعوت واجتنابِ العيوب.

وإذا أنعَمنا النظر في هذه المواصفات كلِّها، يمكن لنا تقسيمُها إلى نوعين رئيسَين، منه نوعٌ متعلق بالشكل، وآخرُ متعلِّق بالمعنى.

1- عناصر الجودة الشكلية

أ – نعت اللفظ : ويَشترط في جودة اللفظ الفَصاحة والسماحةَ وخُلوَّه من البشاعة؛ كقول الشاعر[1]:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسح

وشُدت على دهم المهاري ركابنا ولم ينتظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

ب – نعت الوزن واشتَرط فيه أن يكون سهل العروض، وجعَل من نعوت الوزن: الترصيع؛ أي: تصييرَ مقاطعِ الأجزاء في البيت على السَّجع، أو شبيهٍ به، أو من جنس واحدٍ في التصريف، مثل أبيات المُنخَّل بن عُبيد اليَشكُري[2]:

ولقد دخلت على الفتا ة الخدر في اليوم المطير

الكاعب الحسناء ترفل في الدمقس و في الحرير

ج – نعت القوافي ويشترط فيها أن تكون عَذبةَ الحرف سلِسةَ المَخرَج، وكذلك جعل من نُعوتها التَّصريع وهو إلحاق العَروض بالضَّرب وزنًا وتَقفية، سواءٌ بزيادة أو نقصان، ويَرى قدامةُ أنَّ امرَأَ القيس أكثرُ مَن يستعمل ذلك، فمنه قولُه:[3]

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل[4]

2- عناصر جودة المعنى

أ – **صحَّة المعنى** : المراد به وضعُ كلمات في قوالِبَ ملائمةٍ للمحلِّ والحال، فعلى الشاعر مراعاةُ نفسية المتلقِّي، وأن يتجنَّب الإحالة والإغراق المفضِيَين إلى التَّشويش على المتلقِّي، وعدم

---

[1]- المصدر نفسه، ص28.

[2]- نفسه، ص25.

[3]- نفسه، ص51.

[4]- امرؤ القيس: الديوان...

تمكُّن المعنى من ذهنه. فكلما أغرَب الشاعر في معانيه، وابتعَد عن الواقع بمسافة بعيدة، وقع في الإحالة، وابتعد عن الصحَّة[1].

ب – التناسب الغرَضي : ويَعني به مطابقة الغرَض للمعنى، واختيارَ الألفاظ التي تلائم الغرض الذي يقول فيه، وتتَّسم بالابتكار، والسَّبكِ الجيِّد.

ج – قضية المبالغة والغلو: فهذا القسم له علاقة وطيدة بسابقيه؛ والمبالغة والغلوُّ مرتبطة بالصِّدق والكذب في الشعر.

وعلى العموم فإن الجودة عند قدامة تعني خلو الشعر (مفردات وصياغة ومعنى وأغراضا ووزنا وقافية)من العيوب التي تحول دون استساغة الشعر. وإذن فإن الجودة عنده هي مقياس نقدي يعتمد الذوق والقواعد معا[2].

أما ابن طباطبا العلوي في عيار الشعر، فقد تحدث في كتابه (عيار الشعر) عن هذا الأمر فقال: "علة الشعر وعيار الشعر أن يورد على الفهم الثاقب، فما قبله واصطفاه فهو واف، وما مجّه ونفاه فهو ناقص. والعلة في قبول الفهم الناقد للشعر الذي يرد عليه، ونفيه للقبيح منه، واهتزازه لما يقبله، وتكرهه لما ينفيه، إن كل حاسة من حواس البدن إنما تتقبل ما يتصل بها مما طبعت له إذا كان وروده عليها ورودا لطيفا، باعتدال لا جور فيه، وبموافقة لا مضادة فيها، فالعين تألف المرأى الحسن، وتقذى بالمرأى القبيح الكريه، والأنف يقبل المشم الطيب ويتأذى بالمنتن الخبيث، والفم يلتذ بالمذاق الحلو ويمج البشع المرّ، والأذن تتشوف للصوت الخفيض الساكن وتتأذى بالجهير الهائل، واليد تنعم بالملمس اللين الناعم وتتأذى بالخشن المؤذي، والفم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق، والجائز المعروف المألوف ويتشوف إليه ويتجلى له، ويستوحش من الكلام الجائر، والخطأ الباطل والمحال المجهول المنكر وينفر منه، ويصدأ له، فإذا كان الكلام الوارد على الفهم منظوما مصفى من كدر العيِّ، مقوما من أود الخطأ واللحن، سالما من جور التأليف، موزونا بميزان الصواب لفظا ومعنى وتركيبا اتسعت طرقه، ولطفت موالجه، فقبله الفهم وارتاح له، وأنس به. وإذا ورد عليه على ضد هذه الصفة، وكان باطلا محالا مجهولا انسدت طرقه ونفاه واستوحش عند حسّه به، وصدئ له، وتأذى به كتأذي سائر الحواس بما يخالفها على ما شرحناه".[3]

---

[1] نفسه، ص58.

[2] – محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث العربي، ص139.

[3] – ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، ص14–15.

ويضيف ابن طباطبا: "وعلة كل حسن مقول الاعتدال، كما أن علة كل قبيح منفي الاضطراب. والنفس تسكن إلى كل ما وافق هواها، وتقلق بما يخالفه، ولها أحوال تتصرف بها، فإذا ورد عليها في حالة من حالاتها ما يوافقها اهتزت له وحدثت لها أريحية وطرب، فإذا ورد عليها ما يخالفها، قلقت واستوحشت"